رقصـــة نيتشـــه
علم الاجتماع وأزمـة الحداثة

تأليـــف

جـــورج شـــتاوت

بـــراين تـــيرنر

مراجعـــة

الدكتـــور أحمـــد زايـــد

جامعـــة قطـــر

رقصـــة نيتشـــه(*)
عـلم الاجتمـاع وأزمـة الحداثـة

تأليـف جـورج شـتاوت
بـراين تـيرنر
مراجعـة
الدكتور أحمـد زايـد
جامعـة قطـر

إذا كانت بعض العلوم الاجتماعية قد استطاعت أن تصل إلى درجة من الاستقرار ـ أو شبه الاستقرار ـ في مواقفها المنهجية والنظرية ، فأن علم الاجتماع ما يزال أبعد ما يكون عن هذا الاستقرار . فكلما تقدم خطوة نحو تبني موقف نظري موحد (وذلك لم يحدث كثيراً) كلما أفرزت المناقشات النظرية والمنهجية آفاقاً جديدة وفتحت أبواباً جديدة ، يوصد بعضها بسرعة ، ولكن الكثير منها يظل مفتوحا للدخول والخروج عبر فترة طويلة من الزمن . ولقد شهد علم الاجتماع في العقدين الماضيين أكثر هذه المناقشات حيوية وحدة . فقد شهد عقد السبعينيات مناقشات راجعت كثيراً من قضايا العلم ومسلماته التقليدية ، سواء على المستوى النظري أو المستوى المنهجي . واستمرت هذه المناقشات في عقد الثمانينيات على نفس الخطوط أحياناً ومتخذه خطوطاً جديدة في أحيان أخرى .

(*) آثرت أن أضع هذا العنوان الفرعي ـ الذي لم يوجد في الأصل ـ وذلك لتوضيح غاية الكتاب ومرماه . وهذه بيانات الكتاب كاملة :

G. Stauth and B. Turner, Nietzche's Dance: Resentment, Reciprocity and Resistence in Social life, Basil Blackwel, Oxford 1988. pp. 254.

ويقف الكتاب الذي نعرض له هنا شامخاً بين مناقشات الثمانينيات ان لم يكن أكثرها شموخاً وأطولها قامة . ويرجع السبب في ذلك إلى طرافة وجدة الموضوع الذي يطرحه . فقد تعودنا كطلاب لعلم الاجتماع وكدارسين لنظرياته أن لا نسمع اشارات إلى فيلسوف مثل نيتشه سواء في تأريخ العلم أو في مجمل نظرياته ، بالرغم من طول الحديث عن الفلسفة في تاريخ العلم وفي البحث عن جذور وروافد نظرياته ومناهجه . ولكن مؤلفا الكتاب يتحديان تراث علم الاجتماع الذي أغفل هذا الفيلسوف الالماني الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) معتل الصحة باحثاً عنها فوق قمم الجبال . بل أنهما يذهبان إلى القول بأن ما تركه نيتشه قد آثر على أهم المشروعات النظرية في علم الاجتماع ، وأن أغفال هذا التأثير ـ في تاريخ العلم ـ كان مقصوداً تحت وطأة السيطرة المفرطة للعقل والعقلانية في النظم الرأسمالية والاشتراكية على حد سواء . يقول المؤلفان « تقوم هذه الدراسة على فكرة أن نيتشه هو العملاق الغائب للفكر الاجتماعي المعاصر وأن اسهام نيتشه في التحليل الاجتماعي المعاصر قد رُفض بشكل منظم أن لم يكن قد طُمس . لقد أدى الخطاب المرتبط بالعقلانية ـ وبشكل مقصود ـ إلى طمس الدور الهام الذي لعبه النقد الثقافي لنيتشه في فهمنا للعالم الحديث » (ص ٣) .

وتشكل هذه الأطروحة تحدياً سافراً لمقولات استقرت بأقدام راسخة في تراث نظريات العلم الاجتماعي ، وخاصة تلك المرتبطة بالتصورات العقلانية للسلوك البشري ، والتي تركز على حساب الاهداف والوسائل في علاقات التبادل ، وتنطلق من منظورات نفعية بحتة في فهم سلوك الانسان وطموحاته . أو هي بالأحرى تشكل تحدياً لمحاولات تاريخ العلم بالتركيز على العقلانية كأساس للمعرفة وبالتركيز على فصل الذات عن الموضوع كأساس للمنهج . وفي مقابل ذلك يبرز المؤلفان الدور الخفي الذي لعبه نيتشه في صياغة أسس مختلفة للمعرفة والمنهج ، تلك الأسس التي أثرت في كثير من منظري المجتمع دون اعتراف مباشر منهم بفضل ريادته .

على أن العودة إلى فلسفة نيتشه ليست ضربا من الترف أو الرياضة العقلية ،

بمعنى أنها ليست مجرد استبدال مؤسس للعلم الاجتماعي بآخر . أن هذه العودة ـ في نظر المؤلفين ـ تمثل حاجة ملحة في ضوء ما تخبره الحضارة الغربية ـ بنظمها الرأسمالية والاشتراكية ـ من أزمة أطلق عليها المؤلفان « أزمة الحداثة » . فالحضارة الغربية (بشقيها الرأسمالي والاشتراكي) والتي انتقلت بالانسان من عالم متخلف إلى عالم حديث تخبر الآن أزمة ترتبط بوجود الانسان من ناحية وبنظم المعرفة المتسلطة عليه من ناحية أخرى .

فمن الناحية الوجودية أدت التغيرات الثقافية والاقتصادية لمجتمع المادة إلى تخليق ظواهر جديدة تهدد وجود الانسان . فقد أدت النزعة الاستهلاكية إلى التركيز على المتع الخارجية للجسم وفقدان استقلاليته وذاتيته . كما تغيرت كثيراً من مفاهيم العلاقات الجنسية ، الأمر الذي طرح تساؤلات جديدة حول الأسرة وحقوق الأبناء ومشكلات الطلاق والاجهاض ، كما أدت التغيرات الهائلة في الطب إلى تغيير المفاهيم المتصلة بمعنى الحياة والموت والصحة . وباختصار لقد أصبح الوجود ذاته ـ كما قال هيدجر ـ وجودا مشكلاً . وإذا كانت هذه الحالة تثير مخاوف حول تدهور ذات الانسان واضمحلالها فأنها تثير مخاوف أيضا حول مصير الانسان .

أما من الناحية المعرفية فأن الأزمة تضرب بجذورها في العقل المدبر والمنشىء لهذه الحضارة . فمنذ عصر التنوير سيطر العقل على كل شيء بحيث ساد الاعتقاد بأن العقل يمكن أن ينظم كل شيء حتى الحياة الاجتماعية ذاتها . ولكن الافراط في النزعة العقلية ـ في مقابل أهمال المشاعر والأحاسيس والروابط الفطرية ـ قد انتهى بالعقل الغربي إلى ضروب من الفوضى واللاعقلانية . فأصبحت رائحة الحنين إلى سنوات ما قبل العقلانية تشم في كتابات عديدة ، كما تميل الفلسفة ـ يوما بعد يوم ـ نحو عدم التقيد بالأطر البنيوية المكبلة بأغلال العقل باحثة عن اللانظام واللاعقل فيما هو منظم وعاقل .

لقد استدعت هذه التجليات لأزمة الحداثة أفكار نيتشه بقوة . فلقد كان هو أول من نبه إلى امكانية هذا التحلل الحضاري . لقد تركزت نظرات نيتشه حول نقد

القوة النظامية التي تكبل عالم الحياة اليومية ، ونقد العالم المصطنع الذي تفرزه النزعة المؤسساتية والذي يقف فوق تبادلية الحياة اليومية وتدفقها ، ونقد المعرفة العقلانية التي تقيد حركة الجسد وتلقائيته . وإذا كان العقل الأوروبي قد غض الطرف عن هذه الأفكار في عصر ازدهاره وطموحه إلى التقدم ، فأنه لا يمكن أن يهملها عندما يتحول هذا الازدهار وذلك الطموح إلى ازمة تهدد الانسان ووجوده .

ويأتي الكتاب الذي نراجعه هنا معبراً عن أزمة الحداثة هذه ، وكاشفا لأبعادها من خلال قراءة لتأثيرات نيتشه في بعض نظريات الانسان والمجتمع ، وصياغة قضايا نظرية جديدة لعلم اجتماع جديد يحقق للانسان مزيدا من السعادة . ويستشعر القارىء للصفحات الأولى من الكتاب أن المؤلفين يقصدان إلى اعادة تحليل نظريات علم الاجتماع من خلال قراءة لها بعين نيتشه ، حيث يقرر المؤلفان أن الدراسة تحاول أن ترجع « علم الاجتماع إلى أصوله بتحليل الآراء التي تأثرت بنيتشه خاصة تلك التي دارت حول التبادلية في الحياة اليومية في مقابل طغيان المؤسساتية والعقلانية » (ص ٣) . ويتدعم هذا الهدف في ذهن القارىء عندما يجد اشارات واضحة إلى تأثير نيتشه على ماكس فيبر وفرويد وادورنو وهربرت ماركيوز ومفكري ما بعد البنيوية في فرنسا من أمثال ميشيل فوكو وجاك دريدا . ولكن ما أن يتقدم القارىء عبر صفحات المقدمة المطولة نسبيا حتى يكتشف أن المؤلفين أكثر طموحاً في هدفهما من محاولة قراءة التراث النظري المتأثر بنيتشه . ويتضح ذلك من نص بليغ « ينحصر هدف هذه الدراسة في استرداد تأثير نيتشه من خلال محاولة تقديم الخطوط العامة لنظرية في المجتمع تتسق مع بعض المنظورات الأصلية التي وضعها نيتشه عن العلاقة بين اللغة والجسم ، بين المجتمع والذات ، بين التفكير والوجود . وإذا ما حاولت هذه الدراسة أن تبتعد ـ أحيانا ـ عن بعض منظورات نيتشه ، فان ذلك أمراً متوقعاً ، طالما أن هدفنا هو حفز تطورات جديدة في النظرية الاجتماعية وليس الوقوع في عبودية بعض القضايا المعتادة في فلسفة نيتشه » . (ص ١٢) . ويكشف النص بشكل صريح عن أن قراءة نيتشه في تراث نظريات المجتمع ليس هدفاً في حد ذاته ، فالهدف النهائي هو ارساء دعائم رؤ ية

جديدة ، لعلم اجتماع جديد يتلائم مع طموحات الانسان النفسية والاخلاقية في العالم الحديث ، ويخلصه من تأثيرات أزمة الحداثة . ويعبر المؤلفان عن ذلك في عبارة ذات دلالة تقول : « بينما بحث نيتشه عن الصحة على قمم الجبال ، فاننا بحثنا عن طريق لعلم الاجتماع على ضفاف نهر »[1] .

ولا شك أن تحديد معالم هذا الطريق الجديد يحتاج إلى قراءة نقدية في تراث السوسيولوجيا . وهذا ما أقدم عليه المؤلفان بالفعل ، غير أن قراءتهما لم تستغرق كل تراث العلم ، بل ركزت على أولئك الذين تأثروا برؤية نيتشه الفلسفية سواء كانوامن العلماء الكلاسيكيين أو من العلماء المعاصرين . أن قراءة التراث هنا لها هدف أبعد من مجرد ابراز تأثير نيتشه على ما أشرنا قبل قليل . فالهدف الأبعد للدراسة كلها هو ارساء دعائم سوسيولوجيا جديدة من ناحية والكشف عن أزمة الحداثة من ناحية أخرى . ولذلك فان الاختيار هنا له معنى ، من حيث ارتباطه بهدف الدراسة ومرماها . لقد تركزت القراءة النقدية التي قدمها المؤلفان ـ والتي استغرقت خمسة فصول من الكتاب ـ على أعمال ماكس فيبر ، وفرويد ، وادورنو ، وميشيل فوكو وأتباعه ، فضلاً عن أعمال متفرقة في فلسفة النوستولوجيا (أو الحنين إلى الماضي) . وتشترك هذه الأعمال جميعاً في خاصيتين : **الأولى** : أنها جميعاً تأثرت بفلسفة نيتشه باعتراف صريح في بعض الأحيان ، وبغير اعتراف في كثير من الأحيان . **والثانية** : أن هذه الأعمال جميعاً قد عبرت عن أزمة الحداثة في الحضارة الغربية . ولذكل فإذا كانت السوسيولوجيا الجديدة التي يود المؤلفان أن يفتحا طريقاً لها هي ـ من ناحية ـ محاولة للخروج من أزمة الحداثة أو على الأقل مساعدة الانسان لتحقيق ذاته معها ، وهي ـ من ناحية أخرى ـ تطوير وتجديد للمقولات الفلسفية لنيتشه ، فان اختيار هؤلاء المفكرين يكون اختيار منطقياً ، كما أن تخصيص معظم فصول الكتاب لتدارس أفكارهم يصبح مسوغاً .

وتبدأ هذه القراءة النقدية بالفصل الأول من الكتاب الذي كرس لدراسة

---

(١) طور المؤلفان الافكار الأساسية في الكتاب وهما على ظهر يخت في نهر موري باستراليا . وفي الموقفين هروب من عالم الحياة .

اخلاقيات النوستولوجيا (الحنين إلى الماضي) في نظرية علم الاجتماع . من ذلك النظرات الانطباعية الكلاسيكية حول فقدان روابط المجتمع المحلي وعلى رأسها نظرات نيتشه وتونيز وزمل التي أكدت تحلل روابط المجتمع المحلي والروابط الدينية وفقدان الفرد لاستقلاليته وهويته ، وخضوعه لاقتصاديات النقود . ومنها أفكار فوكو والسدير ماكنتير وأفكار الفينومينولوجيا الاجتماعية كما ظهرت في أعمال الفرد شوتز وبيتر بيرجر وتوماس لوكمان . ولقد اتجهت هذه الأفكار نحو نقد نزعة الحداثة في المجتمع المعاصر والتي انتهت بوضع مزيد من الضوابط والقيود على الأفراد الذين تحولوا إلى مجرد أشياء (فوكو) أو التي تركت الانسان ضالاً غير قادر على التعامل مع العلاقات الاجتماعية المتضاربة والصيغ الثقافية غير ذات المعنى (برجر ولوكمان) أو التي أدت إلى تحلل الأخلاق تحت زحف العلمانية (ماكنتير) .

ونجد في الفصل الثالث تحليلاً لأفكار ماكس فيبر خاصة أفكاره حول الدين . ويدعي المؤلفان أن ماكس فيبر قد تخفى في قميص نيتشه حيث شكلت أفكار ذلك الأخير الأساس الذي نهضت عليه الابستومولوجيا الفيبرية ، خاصة في جانبها المرتبط بالقوة والدين والكارزيما . فقد تأسس مشروع فيبر في العقلانية على نظرات نيتشه في العلاقة بين المعرفة والنظم والقوة ، كما تجلت هذه النظرات في رؤية ماكس فيبر للجوانب السلبية للعقلانية والنمو البيروقراطي . وهكذا جاء مشروع ماكس فيبر يحوي في داخله تناقضا بين العقلانية والبيروقراطية من ناحية والكارزيما (وما فيها من لا عقلانية) من ناحية أخرى .

ويعالج الفصل الرابع نظريات فرويد التي ركزت بشكل واضح على الجوانب غير العقلانية في تحليل النفس البشرية . وذهب المؤلفان إلى أن نظريات فرويد تعاني من الغموض ، ولذلك فأنها تفسر بأشكال مختلفة بدءاً من التفسيرات المحافظة وحتى التفسيرات الثورية . ويؤكد المؤلفان أنه بالرغم من عدم اشارة فرويد إلى نيتشه إلا أن نظرات نيتشه عن التوتر والصراع بين ابولو (إلـه الشعر والجمال) ودينوسيوس (إلـه الخمر) كانت هي الأساس الذي بنى عليه فرويد رأيه

عن الصراع بين الجنسية والحضارة . كما أن تحليل نيتشه لفكرة الشعور بالذنب التي تخلق لدى الانسان توتراً بين الحياة الغريزية والمطالب الاجتماعية ، وعلاقة ذلك بظهور الخلل العقلي وبظهور الابداع والانتاج الحضاري ، هذا التحليل هو الذي نهضت عليه نظرية التحليل النفسي برمتها . ولقد ذهب المؤلفان مذهباً بعيداً في ابراز تأثير نيتشه على فرويد إلى درجة أنهما أجريا تحليلاً مقارناً بين آرائهما أبرزا فيه أسبقية نظرات نيتشه في تحليل أغوار النفس البشرية على نظريات فرويد ، وأكد المؤلفان على أنه بالرغم من هذه الأسبقية إلا أنها أسبقية لا يعترف بها في تأريخ علم الاجتماع . ذلك أنها تركت تأثيراً لا على فرويد ذاته فحسب بل على كل من تأثر به فيما بعد . ويذكر المؤلفان على سبيل المثال لا الحصر صياغات تالكوت بارسونز عن الشخصية ، ومفهو ادورنو عن الشخصية التسلطية ومفهوم هبرماس عن التبادل الحر وأشكال المعرفة ، ومفهوم ماركيوز عن الانسان ذي البعد الواحد .

وإذا كانت كتابات فرويد قد اتجهت نحو نقد العقلانية في الحضارة الغربية ، فأن كتابات بعض هؤلاء المعاصرين قد اتجهت نحو نقد ايديولوجيا هذه الحضارة . ولذلك فقد كرس المؤلفان فصلاً مستقلاً ـ الفصل الخامس ـ لموضوع نقد الايدلوجيا من خلال فحص النظريات النقدية التي أوضحت بجلاء الطبيعة الإدارية والبيروقراطية للرأسمالية . وركز الباحثان على أعمال ادورنو التي جسدت العقل النقدي لايديولوجيا عالم الرأسمالية الإداري ، ذلك العالم الذي تحكمه البيروقراطية والنظم الإدارية ، التي أثرت بشكل كبير على استقلالية الفرد وتبادلاته في الحياة اليومية . ويؤكد المؤلفان على أن الخطوط النقدية التي طورها ادورنو لايديولوجية النظام في الحضارة الغربية قد تأثرت بنظرات نيتشه ، أما بشكل مباشر حيث اقتبسه مراراً في كتابه « جدل التنوير » الذي ألفه مع هوركهايمر ، أو بشكل غير مباشر عبر تأثره بفرويد وماكس فيبر .

ويناقش الفصل السادس ـ والأخير في هذه القراءة النقدية ـ أفكار ما بعد البنيوية في فرنسا والتي تطورت في أعمال فوكو وأتباعه من أمثال بلانكو ودريدا وكلوزوفسكي وغيرهم . لقد تمكن المفكرون الفرنسيون من تقديم تحليل نقدي

للحتمية الماركسية والبنيوية والوضعية في آن . ولقد اعتمدت المدرسة الفرنسية النقدية على كثير من أفكار نيتشه في نقدها لهذه المدارس وفي تطويرها لأفكار جديدة . فقد تأسست المدرسة الفرنسية حول نقد الأساس العقلاني ـ الذرائعي للمجتمعات الصناعية ، الأمر الذي أدى إلى سقوط بعض رموز الفكر في هذه المجتمعات ـ من ديكارت إلى ماركس ـ ليحل محلها نيتشه كناقد للفرضيات العقلانية التي تكمن خلف الرأسمالية والاشتراكية . فجاءت أفكار فوكو عن التاريخ الذي يتسم بالعرضية وعدم الاتساق واللاغائية ناقدة لفهم التاريخ على أنه مخطط عقلاني ، كما جاء تحليل فوكو للعلاقة بين القوة والمعرفة ناقداً للسيطرة الثقافية للنظم الرأسمالية (قام هذا التحليل على مفهوم الجسد كمنتج للمعرفة والقوة وكخاضع لهما في آن) . وفي كلا الحالتين بدأ تأثير نيتشه واضحاً على فوكو . كما ظهر تأثيره أيضا على جاك دريدا الذي حاول أن يقدم منهجاً ـ في النقد الأدبي ـ يعمل على تفكيك الافتراضات العقلية الكامنة في النصوص ، فحطم بذلك اغلال البنائية وقيودها .

وهكذا أطال المؤلفان القراءة والتحليل عبر خمس فصول من الكتاب . ويلمس القارىء لهذه الفصول الخمس بعض الخطوط التي تتجمع هنا وهناك لتصب في طريق يود المؤلفان أن يصلا إليه ، وهو طريق السوسيولوجيا الجديدة التي دعيا إليها في مقدمة الكتاب ، تلك السوسيولوجيا المتأثرة بأفكار نيتشه والتي وسمها المؤلفان بأنها سوسيولوجيا باعثة على البهجة Joyful Sociology معتمدين مفهوم نيتشه عن العلم الباعث على البهجة Die Frohliche Wissenschaft ولقد قدم المؤلفان وجه نظرهما بشكل أكثر وضوحا في الفصلين الثاني والسابع من الكتاب ، فضلاً عن أجزاء من المقدمة . ونقدم فيما يلي الأسس التي تنهض عليها هذه السوسيولوجيا[٢] .

---

(٢) لم يحدد المؤلفان هذه العناصر على النحو الوارد هنا ، أنها تعكس فهم كاتب هذه السطور .

١ ـ ضرورة التخلص من الفكر الحتمي ، أو السعي نحوالفكر الراقص في مقابل الفكر الحتمي . لقد ظهر الفكر الحتمي عند فيبر في نزعته الجبرية في فهم العلاقات الاجتماعية ، كما ظهر عند فرويد في الدور الهام الذي أضفاه على القوى اللاشعورية ، وظهر عند ماركس ـ بشكل فج ـ في حتمية العلاقة بين الحاجة وبين الاقتصاد . وهذه وغيرها حتميات لا يجب أن يعول عليها كثيراً . وترجع أهمية نيتشه إلى أن فكره كان ـ وما يزال ـ فكراً أكثر خصوبة وأقل حتمية . أنه يقف راقصاً لا ينزع إلى الحتمية قدر نزوعه نحو النقد اليوتوبي وسعادة البشر ، ولا ينزع إلى اكتشاف المعاني من الأشياء الكبيرة قدر نزوعه إلى اكتشافها من « الأشياء الصغيرة » ، من بساطة الحياة اليومية وسذاجتها .

٢ ـ تقوم الحياة الاجتماعية على مستويات للنظام تبدأ بالفرد الذي لا يحقق وجوده إلا بالإعتماد على الآخرين والاحساس بذاته تجاههم . ففي الفرد يتجسد التناقض بين الاعتماد والتبعية من ناحية والمقاومة والرفض من جانب آخر . أما المستوى الثاني فيرتبط بالذاتية الداخلية inter- Snbjectivity لتبادلية الحياة اليومية التي تتكون من سلاسل لا متناهية من التبادلات الرمزية والمادية . ويتشكل هنا عالم الحياة Life- World الذي هو الاطار الملموس لتبادل الموضوعات المادية والرمزية التي تكون نسيج المجتمع ذاته . ويمتلىء عالم الحياة بالزمالة والتعاطف والتقمص الوجداني التي على أساسها تقوم الاتجاهات الاجتماعية والسياسية . أما المستوى الثالث والأخير فيتشكل من نظم المجتمع ومؤسساته التي تقف فوق عالم الحياة توجهه وتعيد صياغته الأمر الذي يضفي عليه ضربا من الغموض والابهام . ولقد أدى مشروع الحداثة في الحضارة الغربية إلى تشويه هذا العالم وتجهيله .

٣ ـ أن انشغال العلم بمشروع الحداثة ونظمها العقلانية قد أدى إلى انشغاله المفرط بالنظم والمؤسسات على حساب عالم الذاتية الداخلية في الحياة اليومية . ومن ثم فأن السوسيولوجيا الجديدة لابد وأن تعطي أولوية لفهم عالم

الحياة اليومية ، حيث تتخلق العلاقة بين العقل والجسد ، والذات والمجتمع ، والطبيعة والثقافة . ففي هذا العالم تتكون مشاعر الفرد وممارساته واتجاهاته واستعدادته : وهو العالم الذي تتبدى فيه التبادلية الانسانية human reciprocity ، وهو عالم الأشياء والعادات واللغة ، فيه يظهر خضوع الفرد وامتعاضه ومقاومته . وتتحدد مهمة عالم الاجتماع هنا في محاولة فهم عالم الحياة اليومية وكشف الغموض الذي يكتنفه .

٤ - وتستدعي العلاقة بين عالم الحياة اليومية وعالم المؤسساتية تحديد لطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع . أن علم الاجتماع هو العلم الذي يسعى إلى أن يحقق البهجة والسعادة للفرد ، ومن ثم فأنه يتجه إليه بالضرورة . ولكن الفرد يعيش في مجتمع ، ولابد أن يطور علاقة الفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . لا يروق للمؤلفين تبني أي صياغة لعلاقة الفرد بالمجتمع من تلك الصياغات التي يزخر بها التراث . فهما يرفضان هذه الصياغات لأنها أما حتمية تجعل الفرد محكوماً بعلاقات وأطر ثقافية أقوى منه ، وأما ذاتية تعلى من شأن الذات المالكة والذات المفكرة للفرد البرجوازي . أن السوسيولوجيا الجديدة التي تتطور في هذا الكتاب تقف من قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع موقفاً مختلفاً عن فكرة الذات العارفة عند ديكارت وعن فكرة الذات العاملة عند ماركس . ويقوم هذا الموقف على أن الفرد لا يتحدد طبقاً لملكيته الفردية ولا معرفته قدر ما يتحدد وفقاً لاستقلاله الشخصي في سعيه نحو القوة وفي سعيه نحو تحقيق وجوده الجسدي ووجوده الذاتي . والفرد في سعيه نحو الأستقلال يجب أن يقف موقفاً وسطاً فلا يتردى في الفوضوية الفردية ولا يخضع لحتمية النظم . ويسعى المؤلفان هنا نحو تبني موقفاً وسطاً يبرزان فيه خصوصية الفرد واستقلاليته وتأكيده لذاته ونشاطه من ناحية ، وتبنيه لموقف أخلاقي تجاه المجتمع من ناحية أخرى . ومن ثم فأن مفهوم الأخلاق يحتل مكانة محورية في التحليل السوسيولوجي الجديد الذي يدعو المؤلفان ألى تبنيه .

٥ - وتنظر السوسيولوجيا الجديدة إلى الحداثة والتحديث على أنهما يضمان ثقافات (الحداثة) وعمليات (التحديث) تبدو مصطنعة وسطحية أمام تدفق عالم الحياة اليومية . ولقد نجحت عمليات التحديث في أن تجعل قيودها التنظيمية والثقافية قيوداً عالمية . أن هذا القفص الحديدي الذي خلقته الحداثة لا يتفق وفكرة الانسان المستقل الذي يسعى نحو تأكيد ذاته وتأكيد حياته ونشاطه والذي يسعى نحو الوصول إلى أعلى مستوى من تذوق الجمال والسعادة ، ومن السلوك الأخلاقي . ولذلك فإذا كان علم الاجتماع يتجه نحو عالم الحياة اليومية بالدراسة والفهم ، فأنه يتجه إلى عمليات التحديث المصطنعة بالنقد . ويقوم هذا النقد على وجهين : **الأول** هو نقد علم الاجتماع ذاته خاصة الأطر المعرفية المرتبطة بنظم التحديث والإدارة . **والثاني** هو نقد المجتمع ذاته . ويطور المؤلفان هنا مفهوم النقد اليوتوبي Utopian Critique حيث يعتقدان أنه يحقق للانسان التفاؤ ل ويفتح أمامه أفاقاً جديدة لتغيير عالمه نحو الأفضل .

هذه هي أهم القضايا التي تدور حولها السوسيولوجيا الجديدة التي يدعو الكتاب الذي بين أيدينا إلى تبنيها بقوة . ولقد نجح المؤلفان بحق في بلورة أرائهما على نحو جديد خاصة عندما اتخذا من نيتشه محوراً لمناقشة بعض نظريات علم الاجتماع ، ولتطوير اطروحات جديدة لسوسيولوجيا مبهجة . ومع ذلك فقد أثارت قراءة الكتاب بعض الملاحظات التي نوردها فيما يلي :

١ - يشعر القارىء أنه يقرأ لمؤلفين ينتميان لجيل قلق ، عاش رافضاً ولكنه يحاول الآن أن يجد لنفسه مكاناً على الخريطة الفكرية . فالمؤلفان ينتميان إلى الجيل الذي عايش أحداث نهاية الستينات في أوربا ، ولعلهما شاركا في هذه الأحداث . لقد عاش هذا الجيل رافضاً لثقافة الرأسمالية والاشتراكية ، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه يندمج في عالم الحياة الذي يتجه نحوه بالنقد باحثاً عن طريق جديد للتكيف . وفي ضوء ذلك يمكن أن تفهم الروح النقدية التي كتب بها الكتاب ، كما يمكن أن يفهم أيضاً مغزى العودة إلى نيتشه

والاطروحات التي تقوم عليها السوسيولوجيا الجديدة التي يدعو إليها الكتاب .

٢ - ويمكن للقارىء أن يكتشف جذوراً للأفكار التي طرحها المؤلفان عند جيل النقاد في حقبة الستينيات والسبعينات . حقيقة أن المؤلفين قد أشارا إلى ادرنو وماركيوز وغيرهما من مفكري مدرسة فرانكفورت ، ولكنهما لم يشيرا إلى الاسهامات النقدية لكل من رايت ميلز والفن جولدنر . فلم توجد أية اشارة لهما أو لمؤلفاتهما عبر صفحات الكتاب . أن الروح النقدية التي يدعو إليها المؤلفان (خاصة نقد النظم المعرفية في علم الاجتماع ونقد المجتمع) قد ظهرت في الكتابات النقدية لكل من رايت ميلز والفن جولدنر (وغيرهما ممن استجابوا لحركة المجتمع والفكر في الستينيات والسبعينات) . ونذكر في هذا السياق مفهوم رايت ميلز عن الخيال السوسيولوجي ، ومفهوم الفن جولدنر عن علم الاجتماع المتأمل لذاته reflexive sociology .

٣ - ولا شك أن المؤلفين لم يستطيعا حل بعض المعضلات التي تواجه التحليل الذي تبنياه في الكتاب . فما تزال مقولات مثل « السياسي » و « الاجتماعي » و « التغير » بحاجة إلى مزيد من الدرس . وحسبنا هنا أن نشير إلى معضلة العلاقة بين الفرد والمجتمع . لقد رفض الباحثان كل الحلول السابقة لهذه المعضلة ، معتمدين مفهوم استقلالية الفرد وبحثه عن مصادر السعادة الجسدية والنفسية في اطار ذات أخلاقية . ولكن هذا الموقف ليس جديداً كل الجدة حيث يمكن للمرء أن يتلمسه في أعمال دور كايم على وجه التحديد . حقيقة أن دوركايم يقدم المجتمع على الفرد إلى حد التقديس ، ولكن القراءات المعاصرة لدوركايم أبرزت أهمية ومحورية مفهوم الفرد الأخلاقي في صياغات دوركايم ، كما أبرزت فهما دوركايميا متوازناً لعلاقة الفرد بالمجتمع .

٤ - وتبقى ملاحظة أخيرة لقارىء من خارج نطاق الحضارة الغربية . أن نيتشه هو فيلسوف القوة دون منازع ، حيث شيد الأخلاق على أساس بيولوجي وذهب

إلى أن المقياس الذي نخبر به الفرد أو الجماعة أو الجنس هو النشاط والمقدرة والقوة . وإذا كانت أزمة الحداثة في الحضارة الغربية قد استدعت أفكار نيتشه ، فأن المتأمل للموقف من خارج الحضارة الغربية يلحظ نمو وعي أوربي جديد قد يشي بالنزوع نحو القومية حينا ونحو الفوضوية حينا آخر . ولقد كان المؤلفان على وعي بمثل هذا الاتهام ودفعاه ، ولكن هذا الوعي في حد ذاته قد يكون دليلا على صحة الشعور الذي يراودنا ونحن نقرأ الكتاب من خارج نطاق الحضارة الغربية .